Journal of Languages and Translation (*JLT*)
Vol. 10, Issue 2, pp. 116-138 | April 2023
Print ISSN: 2735-4520 | E-ISSN: 2735-4539
https://jltmin.journals.ekb.eg/

لغة القوم مقابل لغة اليوم عند ابن فارس (ق ٤ هـ/ ق ١٠م): أهي صيغة قديمة للازدواجية اللغوية في العربية؟

المقال من تأليف: بْيِيرْ لارْشِي
معهد الدراسات حول العالم العربي والإسلامي

ترجمه للعربية وعلَّق عليه: خالد اليعبودي
قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
البريد الإليكتروني: kelyaboudi@sharjah.ac.ae

Received: January 15, 2023 Accepted: April 09, 2023 Published : April 16, 2023

تصدير

هذه ترجمة لمقال مهم كتبه الأستاذ الدكتور بْيِيرْ لارْشِي، أستاذ الدراسات العربية بمعهد الدراسات حول العالم العربي والإسلامي IREMAM، وهو مستعرب كبير له العديد من البحوث في تاريخ اللغة العربية والتراث اللغوي العربي وقد تَرجم المعلقات للغة الفرنسية. أما المقال الذي بين أيدينا (وقد نُشر في Eggen & Issa, 2017)، فهو مناقشة جادة لموضوع قديم لكنه متجدد عن الازدواجية اللغوية في العربية كما رآها ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ/ ١٠٠٤ م) في كتابه "الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها" كدليل على اهتمام علماء العربية بالازدواجية في اللغة العربية منذ القرن الرابع الهجري.

المستخلص

ما زالت تهيمن في اللسانيات الاجتماعية العربية كلمة رئيسة، هي كلمة الازدواجية اللغوية[١] (Diglossia). يتناول المؤلف بيير لارشي نماذج من التراث العربي، ويقوم بتحليل تقسيم ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ/ ١٠٠٤ م) في كتابه: الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها: لغة القوم مقابل لغة اليوم بوصفه حجة للتصديق بوجود الازدواجية اللغوية عند المفكرين العرب

[١] بيانات المقال المترجم كالآتي:
Larcher, P. (2017). Une formulation ancienne de la diglossie en arabe? Luġat al-qawm vs luġat al-yawm d'Ibn Fāris (IVe/Xe siècle). In N. S. Eggen & R. Issa (Eds.), *Philologists in the world: A Festschrift in honour of Gunvor Mejdell* (pp. 25-40). The Institute for Comparative Research in Human Culture.

في القرن الرابع الهجري. مع الإشارة إلى أنّ اللسانيات الاجتماعية مصدر مثير للاهتمام في فهم واقع اللغة العربية.

الكلمات المفاتيح: الازدواجية اللغوية، اللسانيات الاجتماعية، اللغة العربية، لغة القوم، لغة اليوم

ظلَّ مصطلحٌ أساسيٌّ مُهيْمنًا ومَا زَالَ بِاللّسانِياتِ الاجْتِماعِيةِ لِلْعربِيةِ، هو "دِيكْلُوسْيَا" (Diglossie) (:الازْدِواجِيةُ اللغوِيةُ). إنَّ هَدفنَا بِهَذا المَقال لا يَكْمنُ فِي الْبرْهنةِ علَى صَلاحيةِ المَفْهومِ للحديثِ عنِ حالة اللّسان العربِي؛ لِأنّهُ موْضوعٌ مطْروقٌ إلى عهدٍ قرِيبٍ[٢] .

إذا جازَ لنَا العودةُ مُجدَّدًا إلَى تَأْريخِ المَفهومِ (مُهمّةٌ عَالجتْها اللّسانياتُ وعلى نَحوٍ خاصٍّ اللّسانياتُ العربِيةُ[٣]) يُمكنُ التَّذكيرُ بِاخْتصارٍ أنَّ أَصلَ الكَلمةِ يَتمثَّلُ فِي "Diglossia" اليونانِيّةِ الدّالّةِ عَلى مَعنَى "ازْدِواجِ اللُّغةِ" (Double Langage).

بينمَا في سَنة ١٨٨٥ اسْتعملَ الكاتبُ اليونانِيُّ "إيمانويلْ غُوئِدِسْ" (Emmanuel Rhoidis) (١٨٣٥-١٩٠٤) المُصطلحَ في العددَيْنِ ١٠٥٦-١٠٥٧ منْ مجلةِ "أكْروبوليسْ" (Akropolis) للإحالةِ علَى وَضعٍ ثنائِيٍّ باليونانيةِ الحديثَةِ، حيثُ يَتَعايَشُ تنوّعانِ للغةٍ واحدةٍ يُطلقُ عَليهَا: "Kathrevousa" (اللغةُ الخالِصةُ) و "Dhimotiki" (اللغةُ الشعْبِيةُ).

فِي نفْسِ السنةِ وَظَّفَ "جانْ بْسِيكارِي" (Jean Psichari) (١٨٥٤-١٩٢٩) بكتابِهِ: "عناصرُ نحْوِ اليونانيةِ الحديثةِ" مُصطلحَ "ديكْلوسْيَا" (:ازدواجيةٌ لغويةٌ) مرَّتيْنِ بالإحالةِ على " غُوئِدِسْ"، وقدْ فسَّرَ تلميذهُ "هوبيرْ بيرنُو" (Hubert Pernot) (١٨٧٠-١٩٤٦) في مقدمةِ كتابِهِ: "نحوُ اليونانيةِ الحديثةِ" الصادرِ سنةَ ١٨٩٧ كيفَ آلَ الحالُ إلى بُلوغِ هذهِ الازدواجيةِ الغريبَةِ.

انتقلَ مفهومُ "ديكْلوسيَا" (:الازدواجيةُ اللغويةُ) منْ اليونانيةِ الحديثةِ إلى العربيةِ بواسطةِ باحثيْنَ متخصّصيْنَ في الدراساتِ الهيلينيةِ الحديثةِ.

أشارَ المستعربُ الأمريكِيُّ "آلانْ ستيوارتْ كايْ" (Alan Stewart Kay) (1944-2007) مرّاتٍ متعددةً إلى الألمانِيِّ "كارلْ كرومباشيرْ" (Karl Krumbacher) (١٨٥٦-١٩٠٩) بوصفهِ أولَ منْ تحدّثَ عنِ الازدواجيةِ اللغويةِ [٤] في العربيةِ.

[2] Mejdell (2012)
[3] Drettas (1981, pp. 61-98), Prudent (1981, pp. 13-38), Fernandez (1995, pp. 163-195) & Larcher (2003, pp. 47-61)
[4] Kay (1994, p. 53)

يُهمِلُ "كايْ" معَ ذلكَ أنَّ "كرومْباشيرْ" لمْ يكنْ مُسْتعربًا؛ إنمَا هوَ باحثٌ متخصِّصٌ في اليونانيةِ البيزنطيةِ والحديثةِ. فإذَا تصفّحْنَا الكتابَ الذي يُحيلُ عليهِ "كايْ"، وهوَ: " Das Problem der neugriechischen Schriftsprache " ("مشكلةُ لغةِ النصّ القوطيِّ الجديدِ")؛ نطالعُ أنَّ "كرومْباشيرْ" يتحدّثُ عنِ الازدواجيةِ اللغويةِ باليونانيةِ الحديثةِ دونمَا أدنَى إشارةٍ إلى الازدواجيةِ اللغويةِ في العربيةِ؛ إنمَا يُقارِنُ فقطْ وضعَ اليونانيةِ معَ لغاتٍ أخرَى، منهَا العَرَبْيةُ[٥] .

ففي صفحة ٩٥، يُميِّز بين "لغةٍ مكتوبةٍ" (schriftsprache) (أوْ لغةٍ أدبيةٍ) وَ"اللهجاتِ" (Dialekte, Mundarten)، معَ وضعِ فرضيةٍ بإمكانيةِ أنْ تُشكِّلَ "اللهجةُ" (مثلَ اللهجةِ المصريةِ) أساسَ لغةٍ أدبيةٍ جديدةٍ.

يَسْري نفسُ القولِ علَى "جانْ پسيكارِي" (Jean Psichari) المشارِ إليهِ أعلاهْ، فقدْ حرصَ الباحثُ في مقالٍ شهيرٍ لهُ بعنوانِ: "بلدٌ لا يُريدُ لُغَتهُ" (Un pays qui ne veut pas de sa langue)، الصادرِ في مجلةٍ ذاتُ صيتٍ كبيرٍ: "لاميركيرْ دُو فرانسْ" (La Mercure de France) على التقريبِ بشكلٍ مباشرٍ وجليٍّ بينَ الازدواجيةِ اللغويةِ اليونانيةِ ازدواجية اللسانِ عندَ العربِ، يقولُ: "خلاصةُ القولِ، هناكَ لغتانِ: لغةٌ منطوقةٌ ولغةٌ مكتوبةٌ، كمَا يتضحُ في قولهمْ: العربيةُ العاميةُ (L'arabe vulgaire) والعربيةُ الفصحَى (L'arabe littéral)" [٦]. نلاحظُ أنَّ مقالَ "جان پْسيكاري" يتقدّمُ بسنتيْن مقالَ "وليامْ مارسِي" (William Marçais) (١٨٧٢-١٩٥٦): "الازدواجيةُ اللغويةُ العربيةُ" (La diglossie arabe) [٧]، الذي يبدُو – في غِيابِ ما يُعارضُ ذلكَ- أوّلَ تطبيقٍ مُستعربٍ لمفهومِ "ديجلوسْيَا" (الازدواجيةِ اللغويةِ) علَى العربيةِ.

إذَا كانَ مفهومُ "ديجلوسْيَا" (Diglossie) دخيلاً علَى اللسانياتِ العربيةِ منَ اللسانياتِ الهيلينيةِ الحديثةِ؛ فإنَّ تتمّةَ الحكايةِ معروفةٌ، ذلكَ أنَّ اللسانيَّ الأمريكيَّ "تشارلز فرجْسونْ" (Charles Ferguson) (١٩٢١-١٩٩٨) نَظَّرَ لهذا المفهومِ [:"ديجلوسْيَا" (Diglossie) (:الازدواجية اللغوية)[٨] في مقالهِ الذي يحملُ ذاتَ العُنوانِ، الصادرِ في مجلةِ "وُورْدْ" (Word) سنةَ ١٩٥٩، انطلاقًا منْ أربعِ حالاتٍ لغويةٍ، باليونانِ، والعالمِ العربيِّ، وسْويسرَا الألمانيةِ، والهايْتِي، وغدَا المقالُ المرجعَ الأساسَ في هذا الموضوعِ، إلى درجةٍ اعتبرَ الكثيرُ من المستعربينَ أنّ " فرجْسونْ" هوَ واضِعُ المفهومِ.

يَعْقِدُ بداهةً أهلُ الاختصاصِ في اليونانيةِ الحديثةِ منْ أمثالِ "كرومباشيرْ" و"پْسيكارِي" –حينمَا

[5] Krumbacher (1902, pp. 13-26)
[6] Psichari (1928, p. 66)
[7] Psichari (1928, p. 66)
[٨] كل ما يَرِدُ بيْن معقوفتيْن : [..] هو إضافةٌ تفسيريةٌ، أو تعليقٌ من المُترجِمِ.

يدرُسونَ الازدواجيةَ اللغويةَ اليونانيةَ- مقارنةً معَ العربيةِ نتيجةَ وعْيِ المستعرِبينَ بوُجودِ ازدواجية اللسانِ بهذهِ اللغةِ منذُ مدّةٍ طويلةٍ دونَ تسمِيَتِهَا.

يُمكننَا العودةُ في أقلِّ الأحوالِ إلى القرنِ السابعِ عشرَ الميلاديّ، حيثُ تُستعملُ إلى جانبِ تسميةِ "العربيةِ" تسميةٌ أخرَى هيَ: "Langue vulgaire" (اللغةُ السوقيةُ)، أوْ بالأحْرى يستعملُ إلى جانبِ اللاتينيةِ -التي كانتْ اللغةَ الأكاديميةَ العالميةَ لذلكَ العهْدِ- مصطلحُ "Lingua Vulgaris" (اللغةُ السوقيةُ أوِ العاميةُ)، إنها تسميةٌ تتطلّبُ وقفةً متأنّيةً، ذلك أنَّ فِرقَ المُبَشِّرينَ المبعوثينَ منْ لدنِ رومَا إلى الجماعاتِ النصرانيةِ بالمشرقِ همْ منْ تَنبَّهُوا إلى أنَّ الفُصْحى التي تَلَقَّوْهَا في دِراساتهمْ لمْ تُسْعِفْهُمْ كثيرًا في تواصُلهمْ معَ رعاياهمْ بالمشرقِ، وبمَا أنهمْ كانُوا إيطاليينَ أو مُرْتبطينَ بإيطاليَا، فقدْ أسْقطوا على العربيةِ التقابلَ المألوفَ لديهمْ في اللاتينيةِ: لغةُ الأساقفةِ/ لغةُ العامةِ (Lingua Volgare) ألا وهيَ : الإيطاليةُ[٩]. وقدْ أفضَى ظهورُ مفهومِ "اللغةِ السوقيةِ" إلى اقترانِ صفةٍ جديدةٍ ناعِتةٍ لكلمةِ "عربية" (Arabe).

لاَ زالَ الاصطلاحُ الأوَّلُ الذِي ظهرَ (وهو "Littérale" (Litteralis) [: الفصيحة]) قائمًا إلى يَوْمِنَا هذَا كعُنوانٍ لأحدِ المنابِرِ العربيةِ بالمعهدِ الوطنيِّ للغاتِ والحضاراتِ الشرقيةِ (INALCO) الذي حلَّ محَلَّ المدرسةِ الوطنيةِ للغاتِ الشرقيةِ الحيَّةِ المؤسَّسَةِ بباريسْ سنةَ ١٩٧٥، ثمّ أعقبهُ اصطلاحُ "Littéraire" [: الأدبيةُ" والمقصودُ الفُصحَى]، ثُمَّ أعقبهُ مُصطلحُ "Classique" (الكّلاسيكية).

إنَّ تأثيلَ المصطلحِ الأخيرِ منْ "Classe" الدالِّ في آنٍ واحدٍ علَى: "الصّنفِ الأولِ" وعلَى: "المُدَرَّسِ داخلَ الفصول"، فالعربيةُ الكلاسيكيةُ هيَ في ذاتِ الوقتِ تنوّع النخبةِ [اللغة العالية] والتنوّع المدرسيّ. سُرعانَ ما بدأَ اصطلاحُ "كلاسيكيّ" يُحيلُ – على أثَرِ تحْديثِ العربيةِ الفصحَى علىَ المُستويْنِ المُعجميِّ والنحويِّ- على اللغةِ القديمةِ في تقابُلٍ معَ "العربيةِ المعياريةِ الحديثةِ " (« Arabe Standard moderne ») («Modern Standard Arabic »).

إذا ما كان قد ظهر مفهوم الازدواجية اللغوية في الدراسات العربي باعتباره نتيجة متأخرة (في فترة ما بين الحربين العالميتين) مقابل وعي متقدم بوجود ازدواجية لغوية في العربية، فمَا هِيَ الحالة بالعالمِ العربيِّ إزاءَ هذا الموضوعِ؟

بَداهَةً، إنَّ كلَّ شخصٍ يُقبِلُ على تعلُّمِ العربيةِ، يتعلّمُ ضرورةً تنوّعين، هُمَا: "اللغةُ الفُصحَى" و"اللغةُ العاميةُ"، يُطابقانِ ما يُطلقُ عليهمَا بالفرنسيةِ: "Arabe Classique" (عربيةٌ كلاسيكيةٌ) و"Arabe Dialectal " (عربيةٌ دارِجَةٌ) (Colloquial Arabic en Anglais)،

[٩] أصدرَ "جرمانوس دي سيسيليا" (Domenicus Germanus) (١٥٨٨-١٦٧٠) سنة ١٦٣٦ في روما معجم اللغة العربية العامية بعنوان *Fabrica Overo Dittionario della lingua volgare arabica*

لكنَّهُ لا **يتلقَّى** أيَّ معلوماتٍ عنْ مكانْ ظهورِ العبارتيْنِ وعنْ زمنِ تداوُلِهمَا.

غيرَ أنَّ البحثَ في النصوصِ يُبرزُ أنَّ العبارتيْنِ مُتداولتانِ منذُ القِدَم، إلا أن استعمالهم يحيل إلى تنوعين من الازدواجية اللغوية العربية حديثة نسبيًا[١٠]، لغة فصحى ولغة عامية تظهران في العصور الوسطى، لكن ليس للدلالة على تنوعين، وإنما على متغايرين للغة واحدة، كلاهما واحد، بمعنى متغاير .

بَزَغَ مصطلحُ "العربية الفُصحى" من عبارة "أفْصَحُ اللغةِ العربيةِ" (:كلامُ العربِ الأكثرُ صفاءً)، الذي تَمَثَّلَ ابتداءً من القرنِ الرابعِ الهجريِّ والعاشرِ الميلادِيِّ في لغة "قُرَيْش"، وهي ذاتُها لغةُ القرآن [الكريم].

كما أنَّ مصطلحَ "لغةٌ عامّيةٌ" دلَّ على "نزعةٍ سوقيَّةٍ" للغة، دون أنْ يُحيلَ أوَّلَ الأمرِ على تنوُّعٍ لهَجِيٍّ للعربية.

بَرَزَ المصطلحُ نهايةَ القرنِ التاسعِ عشرَ بعدَ قُرابةِ قرنٍ منَ الجِدالِ بخصوص اللغةِ القادرةِ على الإسْهامِ في تحديثِ العالمِ العربيِّ (هلْ: العربيةُ؟ أمِ اللغةُ الأجنبيةُ؟ وإذا كانتِ العربية، فأيُّها؟) مِمَّا أفْضى إلى ظهورِ عددٍ من الاصطلاحاتِ في هذا الموضوع. نُطالعُ مَقالاً للكاتبِ "جُرجي زيدان" (١٨٦١-١٩١٤) الصادرِ سنة ١٨٩٢ – بالعددِ الأوَّلِ من مجلة "الهلالِ" التي أسَّسَها- بعنوان: "العربيةُ الفَصْحى واللغةُ العامّيَةُ".

هلْ هذا يعْني بأنه لا وُجودَ لنصوصٍ تشيرُ إلى الحالة اللسانية للعربية قبلَ هاتهِ الفترةِ؟ بالطبعِ لا، والدليلُ على ذلك: حديثُ "ابن خلدون" (ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٦ م) في المبحثيْن ٤٧ و٤٨ من الفصل السادسِ (ص: ١٠٧٣-١٠٨٠) عنْ تعايُش ثلاثِ لغاتٍ، أوْ بالأحْرى تعايش لغتيْن مع ثالثةٍ: الأولى ينعتُها "لغةُ العربِ لهذا العهْدِ"، والثانية يطلِقُ عليها: "لغةُ أهلِ الحَضَرِ والأمصار لهذا العهدِ"، ومن جهةٍ أخرى، هناك: "لغةُ مُضَر"، اسمٌ لأحد الأجدادِ الأوائلِ لعرب الشمالِ (إنه ضمادة أنساب تسمح له بأن يُضم تحت الاسم نفسه منطقتين من العرب قد حُددتا في التراث: لغة تميم ولغة الحجاز)، تنوّعات لغةِ مُضر مُصرَّحٌ باستقلاليتها (فهي "مُستقلَّةٌ" و"قائمةٌ بذاتها") ومُتمَيِّزةٌ عن بعضهَا البعضِ ("مُغايِرةٌ"، "مُخالِفةٌ")، فالأوّلتانِ بوصفهما "لغتيْنِ محليتين" (Vernaculaires)، أما الثالثةُ فهي "مُشتركةٌ" (Véhiculaire) مُعتَمدةٌ في التعليم (وقدْ خصَّصَ ابنُ خلدون المبحثَ المُواليَ (٤٩) (ص:١٠٨٠-١٠٨١) لِنقدِ منهجِ التعليمِ، عَنْوَنَهُ بِ: " في تَعَلُّمِ اللسانِ المُضرِيِّ" **!**)

إذَا عُدنَا إلى زمنٍ سابقٍ، سنُطالعُ الفصلَ السابعَ عشرَ منْ كتابِ "الإيضاحِ في عللِ النحوِ" للزجّاجيّ

[10] Larcher (2008, pp. 263-278)

(ت ٣٣٧ هـ/٩٤٨م أو ٣٣٩-٣٤٠هـ/٩٤٩-٩٥٠ م) (ص:٩٥-٩٦) المعنونِ بِـ: "بابُ ذِكرِ الفائدةِ في تعلُّمِ النحوِ" يُستهَلُّ بجُملةٍ جديرةٍ بالاهتمامِ في قولِهِ: "فما الفائدةُ في تعلُّمِ النحوِ وأكثرُ الناسِ يتكلّمون على سجيّتهم بغيرِ إعرابٍ ولا معرفةٍ منهم بِهِ فيَفهَمونَ ويُفهِمونَ غيرهمْ مثل ذلكَ؟".

يبْدُو كأنَّ الزجّاجيَّ يُثيرُ مسألةَ وجودِ تنوُّعٍ "نحويٍّ"، علمًا أنَّ النحوَ المرادفَ ل"الإعرابِ" تُقبِلُ على تعلُّمِهِ أقلّيّةٌ، في حين هُناكَ لغةٌ عفويةٌ يَتلفظُ بهَا الأغلبيةُ دونَ تقيُّدٍ بإعرابٍ.

إنَّها صورةٌ عن "ديكْلوسيا" (الازدواجية اللغوية) استشفَّها اللسانيُّ المستعربُ البارزُ "حاييم بلانْك" (Haim Blanc) (١٩٢٦-١٩٨٤)، وهي أكثرُ دلالةً من الصورة التي قدّمها "ابن جنّي" (٣٩٢هـ/١٠٠٢م) في "الخصائصِ" (ج٢/ص:٢٨-٢٩)، والتي تُعدُّ معَ ذلك: "أولَ بيانٍ يُشارُ فيه إلى "الديكْلوسيا العربية"[١١] (الازدواجيةُ اللغويةُ بالعربيةِ). أكثرُ دلالةً لأنها تومِئُ إلى تخلُّصٍ مُطلقٍ منَ العلاماتِ الإعرابيةِ، في حين ابنُ جنّي لا يُشيرُ سوَى إلى تخلُّصٍ جزئيٍّ منْ هذهِ العلاماتِ.

صحيحٌ أنَّ ابنَ جنّي يُحيلُ على مصدرٍ سابقٍ للنحوِي الأخفشِ الأوسطِ (ت ٢١٥ هـ/٨٣٠م)، كمَا أنهُ يُحيلُ على قولٍ آخرَ لهُ ب"الخصائصِ" (ج٢/ص٣٢) حينَ أوْرَدَ قولهُ: "مَنْ لا يُعْرِبُ"[١٢].

يتبنَّى "بْلانْك" بداهةً الموقفَ التقليديَّ للسانياتِ التاريخيةِ التي ترَى أنَّ تاريخَ العربيةِ يعكِسُ تطوُّرًا منْ نمطٍ لغويٍّ عربيٍّ قديمٍ (مُعْرَبٍ) إلى نمطٍ منَ العربيةِ جديدٍ (غيرَ مُعرَبٍ).

ما مَثَّلَ في هذا الإطار الازدواجية اللغوية على المستوَى التعاقبيِّ بوصفهَا وضْعَيْنِ للغةٍ واحدةٍ أصبحَ على المستوَى التزامنيِّ تنوّعيْنِ للغةٍ واحدةٍ، غير أنَّ الشكلَ الحديثَ للعربيةِ لمْ يُلغِ مطلقًا الشكلَ القديمَ: إنّمَا قَلَّ استعمالُ الفُصحى لدَى بعضِ المتكلمينَ لأسبابٍ خارجْ لغويةٍ.

نقترحُ –ولوْ بتبنِّي هذا الموقفِ- إعادةَ قراءةٍ نقديةٍ لهذا الفصلِ[١٣]. فكمَا أوضحْنا سلفًا – عنْدَ الإشارةِ إلى الازدواجية اللسانيةِ منْ نَوْعِ "ديكْلوسْيَا" بتنظيرِ "فركْسون" (Ferguson) (١٩٥٩): التوزيع التكامُلي يخُصُّ الاستعمالاتِ لا المستعملينَ.

إنَّ التنوُّعَ اللغويَ الأدنى ليسَ للأغلبيةِ، كمَا أنَّ التنوّعَ اللغويَّ الراقِيَ ليسَ للأقليةِ؛ إنمَا يخُصُّ التنوُّعُ الأدنى كلَّ المجموعةِ اللغويةِ في استعمالٍ بعينهِ، هوَ: التواصلُ الشفويُّ التلقائيُّ، في حين يصدُرُ التنوّعُ الراقِيُّ عنْ عددٍ مُحَدَّدٍ "س" منْ أفرادِ الجماعةِ اللغويةِ في استعمالاتٍ أخرَى: ترتبطُ بالتواصلِ المكتوبِ بداهةً، دونَ أنْ ننْسَى بأنَّ التنوعَ السوقيَّ قابلٌ بدورهِ للتدوينِ (في العربيةِ كمَا

[11] Blanc (1979, p. 171)
[12] Blanc (1979, 165-172)
[13] Larcher (2007, pp. 113-134)

هوَ الحالُ في باقِي اللغاتِ).

إنهُ التواصلُ الشفويُّ المرصودُ (أو المُراقَبُ).

علَى الرغمِ منْ أنَّ عددَ المثقفينَ يُشكِّلونَ أقلّيةً على نحوٍ عامٍّ داخلَ المُجتمعاتِ، بلْ طوائفَ (كمَا هوَ حالُ البرهْمانيينَ في الهندِ)؛ نجدُ بمجتمعٍ مُتقدِّمٍ مثلَ سويسْرا الألمانيةِ مُعَدَّلَ التمدْرُسِ يُناهزُ ١٠٠ **%** إلى درجةٍ أنّ جَميعَ أفرادِ هذا المُجتمعِ يُتقنونَ – إلى حدٍّ مَا- استعمالَ التنوّعِ اللغويِّ الراقِيّ، علَى الأقلِّ، لا يجدونَ أدنَى صعوبةٍ في قراءتِهَا، بلْ وكتابتِهَا والتحدّثِ بها دونَ أدْنَى مشقَّةٍ.

بإمكانِنَا أنْ نؤكّدَ وُجودَ كنايةٍ مُبْتذلةٍ في الاِستعمالِ، كمَا هُو الحالُ حينمَا نقرّرُ بأنّ اللاتينيةَ هي لغةُ الأساقفةِ (في مقابلِ "اللغةِ السوقيةِ" لبقيةِ الناسِ منَ العوامِّ "Vulgumprcus")، وبأنَّ السنسكريتيةَ لغةُ البراهمةِ (في مقابلِ اللغاتِ واللهجاتِ الهنديةِ – الآريةِ "Prăkrits" لبقيةِ الطوائِفِ).

والواقعُ، أنَّ اللغةَ السوقيةَ واللغاتِ واللهجاتِ الهنديةَ – الآريةَ هي لغاتُ جميعِ الناسِ، أمَّا اللاتينيةُ والسنسكريتيةُ فهمَا لُغتانِ مُستعملتانِ في سياقاتٍ خاصةٍ فقطْ.

نُسجلُ في هذا الَمساقِ اعتراضيْنِ، أولهُمَا أنَّ الزجاجِيَّ يذكرُ التقابلَ الموجودَ بينَ العربيةِ المُعْربةِ والعربيةِ غيرِ المُعْربَةِ بناءً على ازدواجية الأغلبيةِ/ الأقليةِ دونَ إشارةٍ إلى الاستعمالِ. غيرَ أنَّ استعمالَ العربيةِ المعْربةِ التي ذكرهَا الزجاجيُّ أقلُّ انتشارًا منَ التنوُّعِ اللغويِّ الراقِيِّ، فهيَ محصورةٌ في خطاباتٍ ثلاثٍ ذاتِ وضعٍ خاصٍّ لدَى الزجاجيِّ، وهيَ: القرآنُ [الكريمُ] والحديثُ النبويُّ [الشريفُ] من جهةٍ كنصوصِ المرجعيةِ الدينيةِ والاجتماعيةِ، والشعْرِ منْ جهةٍ أخرَى، بوصفهِ "أدبَ العربِ وديوانَهم". كمَا أنَّ وظيفةَ الحركةِ الإعرابيةِ محصورةٌ في رفْعِ اللبسِ. معلومٌ أنَّ هذا الدورُ لا يتمثّلُ سوَى بقراءةِ نصٍّ مَكْتوبٍ بحروفِ لغةٍ مجرّدةٍ منْ تدوينِ الحركاتِ (كما هوَ الحالُ في اللغاتِ الساميةِ) (Scriptio Defectiva)، سُرعانَ ما يخْتفِي في الكلامِ الشفويِّ.

يتبيّنُ – بالعودة إلى المثال الذي قدّمه "الزجاجي" في الفصل الرابع عشر (ص:٨٩-٩٠) المعنون ب"بابُ ذكرِ العِلّةِ في تسميةِ هذا النحْو منَ العِلمِ: النحوَ" – أنَّ الإعرابَ هو ما يسمحُ بالتمييزِ بينَ دلالتيْنِ [١٤] ممكنتيْنِ لنفسِ المتواليةِ: "ما أشدَّ الحرَّ" في صيغتيْ التعجّبِ "ما أشدَّ الحرَّ**!**"، والاستفهامِ: "ما أشدُّ الحَرِّ؟"، غيرَ أنَّ الحركةَ الأخيرةَ والتضعيفَ يختفيانِ عندَ التلفّظِ بهمَا في الكلامِ.

[14] Fleisch (1961, pp. 173-175)

فأصبحَ التمييزُ بينهمَا لا يستندُ سوَى إلى حركةِ الآخرِ في "أشدّ"، يُضافُ إليهَا بالضرورةِ عواملٌ فوقَ مقطعيةٍ (Suprasegmentaux) تجعلُ هذه الحركةَ لاَ جدْوَى منْهَا.

نشيرُ في هذا الصددِ، إلى أنَّ الأسقُفَ النسطوريَّ "إيلي دي نيسيبْ" (Elie de Nisibe ´) (٩٧٥-١٠٤٦) لمْ يستحضرْ أيَّ حجّةٍ أخرَى في جدالهِ مع الوزيرِ أبي القاسمِ الحسيْنِ بنِ عليٍّ المغربيِّ (ت ٤١٨ هـ/ ١٠٢٧م) بخصوصِ مزايَا النحويْنِ العربيِّ والسريانِيِّ، في الجلْسةِ السادسةِ منَ اللقاءِ الذي جمعهُمَا سنةَ ٤١٧ هـ/ ١٠٢٦م (يُراجَعُ ص: ٣٦٦-٣٧٢ منْ طبعةِ شيخُو (Cheikho).

نقدِّمُ منْ ضمنِ أمثلةٍ عديدةٍ، مثالاً جنيسًا لمثالِ الزجاجيِّ: جُملةَ: "كيفَ خُرِّبَتِ المدينةُ"، فالتلفُّظُ بالجملةِ مُشافهةً (De lèvres en lèvres) و"إشارةً" (Gestes) و"تنغيم" (Intonnation) يسمحُ بالتمييزِ بينَ معنًى يُفيدُ التعجُّبَ ومعنًى دالٍّ علَى الاستفهامِ، في حين يلتبِسُ الأمرُ كتابةً. ويبدُو أنَّ النحوَ السريانِيَّ يتخطَّى هذهِ العقبةَ بإدراجِ علامةٍ خاصةٍ في هذهِ الحالةِ.

يُحدِّدُ الزجاجيُّ خلافَ ما سبقَ بالفقرةِ الأخيرةِ منْ نفسِ البابِ قائلاً: "فأمَّا منْ تكلّمَ منَ العامَّةِ بالعربيةِ بغيرِ إعرابٍ فيُفهَمُ عنْهُ، فإنَّما ذلكَ في المُتعارفِ المشهورِ والمُستعملِ المألوفِ بالدِّرايةِ".

يُمكن أنْ نذهبَ مذهبَ "كيسْ فريستيجْ" (Kees Versteegh) مترجمِ كتابِ "الإيضاحِ" وشارحه حينمَا أشارَ إلى : "انهَا منَ الإشاراتِ القليلة إلى الكلامِ اليوميِّ (العامّي) التي نطالعُهَا لدَى النحاةِ العربِ" في حالةِ عدمِ وُجودِ الاعتراضِ الثانِيِّ[١٥].

يعودُ الزجّاجيُّ إلى استعمالِ مصطلحِ "العامّةِ" الدالِّ علَى "الأغلبيةِ" والذِي يَستلزمُ مصطلحَ "الأقليّةِ" بمَا أنهُ يتقابلُ مَعَ "الخاصّةِ"، وقدْ سبقَ أنْ وصَفهُ في الفقرةِ السابقةِ المخصّصةِ للشعْرِ.

إذَا سلّمْنَا برأيِ الجاحظِ (ت٢٥٥هـ/٨٦٩م) في نصٍّ وردَ بكتابهِ "البيانُ والتبيينِ" (ج١/١٣٧)، فمُصطلحُ "العامةِ" لا يحيلُ على مجموعةِ الأمّيينَ في مقابلِ النخبةِ المثقفةِ؛ إنما فقطْ إلى مجموعةِ الناسِ المثقفينَ في مُقابلِ قلّةٍ منَ المحظوظينَ المتمكّنينَ منَ اللغةِ الراقيةِ المحافظةِ على خاصيةِ "الإعرابِ".

لا نُؤَوِّلُ بمُقتضَى هذا الاعتبارِ الأخيرِ الفصلَ السابعَ عشرَ منْ كتابِ "الإيضاحِ" بأنهُ ينصُّ على وجودِ تنوّعيْنِ لغويْنِ؛ إنمَا فقطْ هناكَ مستويانِ منْ ذاتِ اللغةِ، المستوى الثابت (: الرَّسْميُّ)

[15] Versteegh (1995, p.167)

والمستوَى المُيَسَّرُ.

يحضُرُ المستوَى الثابت بالنصوصِ المرجعيةِ ولا يُهمِلُ الحركاتِ الإعرابيةَ المقيّدةَ بقواعدِ الفصاحةِ، يوجدُ علىَ العكْسِ منْ ذلكَ في المستوَى الميسَّر تعدّدٌ لحالاتِ الوقْفِ. إذَا صحَّ هذَا التأويلُ، فإنّ الأمرَ لا يتعلّقُ في هذا النصّ بالازدواجيةِ اللغويةِ (الديجلوسيَا)؛ وإنمَا باستعْمالٍ لا زالَ قائمًا إلى يومنَا هذَا بينَ أوساطِ المتكلمينَ بالعربيةِ منَ المثقفينَ.

يبدو أنَّ المُرَشَّحَ الأمْثلَ في هذا السياق: تقابلٌ نطالعهُ وَرَدَ عَرَضِيًّا في فصلٍ منْ فصولِ كِتابِ "الصاحبي في فقهِ اللغةِ" لأحمدَ بنِ فارسٍ (ت ٣٩٥هـ/١٠٠٤م): تقابلٌ وردَ بشكلٍ عَرَضِيٍّ لأنهُ ليسَ موْضوعَ الفصْلِ؛ إنمَا وردَ فقطْ ضمنَ الاستدلالِ على الموضوعِ الحقيقيِّ للفصلِ.

موضوعُ الفصلِ –وهوَ مِنْ أشهرِ فصولِ الكِتابِ-: أصلُ اللغةِ توقيفٌ؟ أمْ اصطلاحٌ؟ أيْ: هلْ هيَ ناتجةٌ عنِ الوضعِ الإلهيِّ؟ أمْ عنِ الاصطلاحِ البشريِّ؟

ينتصِرُ ابنُ فارسٍ للموقفِ الأولِ، وهوَ يمثِّلُ الوجْهةَ المحافظةَ الدينيةَ المستمدّةَ مِنَ القرآنِ الكريمِ (سورة البقرة، الآية ٣١): (وعلَّمَ آدمَ الأسماءَ كلَّهَا).

لقدْ تبنَّى ابنُ فارسٍ الموقفَ المحافظَ دونَ أنْ يُهمِلَ الإشارةَ إلى الموقِفِ المعتدلِ في عرْضهِ لِتأويلِ الآيةِ الكريمةِ، إذْ يَرَى البعضُ أنَّ الآيةَ تشيرُ إلى أسماءِ البشرِ المنحدِرينَ منْ آدمَ، ويرَى البعضُ الآخرُ أنهَا تحيلُ على أسماءِ الملائكةِ.

يَدْحضُ ابنُ فارسٍ الموقفَ القائلَ بالاصطلاحِ في صيغةِ جوابٍ عنِ السؤالِ التالِي (ص:٣٢-٣٣): "فإنْ قالَ أفتقُولُونَ في قوْلِنَا سيفٌ وحُسامٌ وعَضبٌ[١٦]، إلى غيرِ ذلكَ منْ أوصافِهِ، أنهُ توقيفٌ حتَّى لا يكونُ شيءٌ منهُ مُصطلحًا عَلَيْهِ؟". ويُجيبُ قائلاً: "قيلَ لهُ: كذلكَ نقولُ، والدليلُ علَى صحَّةِ ما نذهبُ إليهِ، إجماعُ العلماءِ على الاحْتجاجِ بلغةِ القومِ فيمَا يختلفونَ فيهِ أو يتّفقونَ عليهِ، ثم احتجاجُهُمْ بأشعارهمْ. ولوْ كانتْ اللغةُ مواضعةً واصطلاحًا، لمْ يكُن أولئكَ في الاحْتجاجِ بهمْ بأولَى مِنَّا في الاحتجاجِ لوْ اصطلحْنَا على لُغةِ اليومِ ولا فرْقَ"[١٧].

يَظهرُ بهذا الجَواب: ثنائيُّ "لغةُ القومِ" / "لغةُ اليومِ"، وبينهُمَا جِناسٌ، لا نُرجّحُ أنّ الكاتبَ استعملهُمَا بالمصادفَةِ، إنما اختارهُمَا عنْ قصْدٍ، ولا نعلمُ هلْ وضعهُمَا ابنُ فارسٍ؟ أمْ أخذهُمَا عنْ كاتبٍ آخرَ لمْ يُسمِّهِ. فحينَمَا نُوَظِّفُ مَا أسْماهُ "رومان جاكُبْسُون"[١٨] (Roman Jakobson)

[١٦] هو: السيفُ القاطعُ [المترجم].

[١٧] ابن فارس (١٩٩٧، ص .ص. ١٣-١٤) [المترجم]

[18] Jakobson (1960, pp. 350-377; 1963, pp. 209-248)

(١٨٩٦-١٩٨٢) الوظيفةَ الشعريةَ في اللغة؛ فإنَّمَا نحْرِصُ بذلك أساسًا على إثارة إعْجابِ المُتلقِّي.

لكنْ، تبرزُ مَسْألةٌ سابقةٌ لأوانِهَا، وهِيَ أنَّ مُصطلحَ "لُغَة" المُستعملِ في "صاحبيّ" ابنِ فارسٍ يُعدُّ منَ "المُشتركِ" (:مُتَعَدِّدِ الدلالاتِ) (Polysémie). إذْ يُحيلُ علَى "لُغةٍ" وعلَى "تنوُّعٍ لغويٍّ"، وعلَى "مُستوًى لغويٍّ"، بلْ يُمكنُ أنْ يحيلَ أيضًا علَى جُزْءٍ فقطْ منَ اللغةِ، وهُوَ "المعجمُ"، أوْ علَى وِحْدَةٍ مُعجميةٍ بسيطةٍ.

نُطالعُ التقابلَ بينَ "لغةِ القومِ" و"لغةِ اليومِ" في فصلٍ منْ كِتابِ "ابن فارسٍ" يخصُّ وضعَ اللغةِ وصلةِ الأسماءِ بالمسمّياتِ.

يُمكنُ بناءً علَى ما سبقَ، وبِفهْمِ "الاسمِ" في بُعدِهِ السيميائيِّ ("name") لا في بُعدِهِ الصرفيّ-التركيبيِّ كمقولةٍ صرفيةٍ (nom) أنْ نعتبرَ "اللغةَ" بمعنَى: مجموعُ كلماتٍ. يدفعُ المُؤشِّرُ الذي استخلصهُ اللغويونَ منْ أشعارِ العربِ بأنَّ اللغةَ تتضمّنُ مستوياتٍ كلاميةٍ متعدّدةٍ، وبالتالي لا تنحصرُ في المعجمِ، نقدّمُ لاحقًا حجةً أخْرَى تُعَزِّزُ هذا المقْصِدَ.

لا يتَّصفُ النوعانِ بنفْسِ المواصفاتِ، ف"لغةُ اليومِ" تتميّزُ ببُعْدِهَا الكرونولوجِيّ (: بُعْدُ التسلسُلِ الزمنيِّ) بوصفهَا مُعاصِرةً للكاتبِ ولجمهورِ قُرّاءِهِ، مِمَّا يجعلُ الأخْرَى (:"لغةُ القومِ") الأقدَمَ، غيرَ أنَّ الثانيةَ تتميّزُ بالأخْرَى علَى المستويَيْنِ الأجْناسِيِّ والاجْتماعِيِّ.

ماذا يُرادُ بمصطلحِ "القومِ"؟ وإلَى ماذا يُشيرُ؟

يَرتبطُ مُصطلحُ "القومِ" على المستوَى الصرفِيِّ بفعْلِ "قامَ". ويدُلُّ على المستوَى التأثيلِيِّ علَى "مَنْ يَنهضُ (للْجِهادِ)"، أيْ: على المحاربينَ، منْ رجالِ القبيلةِ في مقابلِ النساءِ. ظلَّ أثرُ هذا التقابلِ راسيًا بالقرآنِ الكريمِ في سورة الحجرات، الآية ١١: (لا يسخَرُ قومٌ منْ قومٍ عَسَى أنْ يكونُوا خيرًا منهمْ ولا نِساءٌ منْ نِساءٍ عسَى أن يَكُنَّ خيرًا منهُنَّ).

غيرَ أنَّ اللفظةَ تدلُّ أيضًا كِنائيًا في بُعدِ البأْسِ الرّجوليِّ على معْنَى مَجْموعِ "القبيلةِ" أوِ "الشعْبِ".

تناسلَتْ عنِ اللفظةِ في عصرنَا الراهِنِ لفظتَا: "قوميٌّ" و"قوميةٌ" للإحالةِ على ما يرتبطُ بالدولِ العربيةِ.

تحيلُ لفظةُ "القومِ" في السياقِ على العربِ، كما تُرادِفُ عبارةُ "لغةُ القومِ" عبارةً أخْرَى، هيَ: "لغةُ العربِ"، أو "اللغةُ العربيةُ"، كمَا يتّضحُ منْ فصلٍ مُتأخرٍ بكتابِ "الصاحبيّ" (ص:٦٣)، حينَمَا قَالَ:

"القولُ في الاحتجاجِ باللغةِ العربيةِ: لغةُ العربِ يُحتجُّ بها فيما اختُلفَ فيها". إنها جملةٌ تفسّرُ ما سبقَ منْ قولِهِ: "إنَّ العلماءَ مُتفقونَ علَى الاحْتجاجِ بلغةِ القومِ [العربية] فيمَا يتفقونَ عليهِ ويختلفونَ فيهِ، لا سيمَا الأشعارَ".

جُملتانِ تُحددانِ وظيفةَ هذا التنوّعِ ذِي الطبيعةِ المرجعيةِ بالإشارةِ صراحةً إلى مَنْ يحتجّ بهذهِ اللغةِ، وسببِ الاحتجاجِ بهَا.

إنهمُ "العلماءُ" بالمعنَى الحقيقيِّ للفظةِ في العربيةِ، وقدْ انتقلَ اللفظُ إلى الفرنسيةِ في صيغةِ "Oulémas"، والمقصودُ بهمْ: أهلُ الاختصاصِ في العلومِ الدينيةِ والشرعيةِ.

أمّا علةُ الاستدلالِ بهَا والاحتجاجِ بهَا فلضروراتٍ تفسيريةٍ وتأويليةٍ علَى نحوٍ خاصٍّ. يُقدّمُ ابنُ فارسٍ (في ص:٦٣) عدةَ آياتٍ قرآنيةٍ اختلفَ فيهَا الفقهاءُ والأصوليونَ ممَّا دفعهمْ إلى اللجوءِ إلَى "لغةِ العربِ".

يتبيّنُ إذنْ أنَّ "لغةَ القومِ" هي ما أطلقَ عليهِ "جِرْفانْ" (Grévin) (٢٠١٢): "اللغةَ المرجعيةَ" التِي حدَّدَهَا علَى النحوِ التاليّ (ص: ٣٩٠): "اللغةُ المرجعيةُ لغةٌ راقيةٌ ترتبطُ بالنصوصِ المقدّسةِ [الدينيةِ]، والتي أكْسبَهَا الناسُ قداسةً، وهي لغةٌ معياريةٌ تُراعِي القواعدَ النحويةَ، وهي المفضّلةُ في التواصلِ المكتوبِ".

إذَا كانَ مصطلحُ: "لغةُ القوْمِ" محدَّدًا بوُضوحٍ؛ فالأمرُ خلافَ ذلكَ في مصطلحِ: "لغةُ اليومِ". فلاَ شيءْ أوْ لاَ نكادُ نجدُ شيئًا يَكشفُ عنْ خاصياتِهِ بمنْأًى عنِ الخاصيةِ الكرونولوجيةِ (: خاصيةُ التسلسلِ الزمنِيّ)، ممّا يدفعُنَا إلىَ التخْمينِ. إذْ يلجأُ ابنُ فارسٍ إلى افتراضِ مَا هوَ غيرُ واقعٍ باستعمالِ أداةِ "لَوْ": فإذَا كانتْ اللغةُ موضوعةٌ اصطلاحًا، فلغةُ القومِ لا قيمةَ مرجعيةً لهَا عندَ العُلماءِ إذَا كانتْ منْ وضعِ البشرِ كمَا هوَ حالُ "لغةِ اليومِ" لدَى الجُمهور المُستعمل لهَا.

بلغةٍ أخْرَى: تكتسبُ "لغةُ القومِ" قيمتَها المرجعيةَ منْ مصدرهَا الإلهِيّ. معَ ذلكَ، لا تُعتبرُ "لغةُ اليومِ" منْ وضْعٍ بشريّ، إذْ يستعملُ "ابنُ فارسٍ" في الحديثِ عنْهَا عبارةَ "لوْ اصْطلحْنَا عليهَا"، ممّا يعْني أنّهُ افتراضٌ واقعيٌّ. نؤكّدُ مِمَّا سبقَ شيْئيْن:

- أولُهما: عدمُ إمكانيةِ اختزالِ "اللغةِ" في مُعجمِ اللغةِ: إذْ نُقابِلُ في المعجميةِ (Lexicologie) [: علمُ اللغةِ بِنعْتِ الأقدمينَ] بينَ "اللغةِ" و"الاصطلاحِ"، بمعنَى بيْنَ الرصيدِ المعجميِّ القديمِ الموروثِ والرصيدِ المعجميِّ الحديثِ المتولّدِ عنْ عملياتِ "الاصطلاحِ" في عِلْمٍ منَ العُلومِ. (مِنْ استعمالِ لفظةِ "اصْطلاح" بهذَا المقصدِ تولّدتِ اليومَ تسميةُ "المصطلحيةِ" (La terminologie).

- ثانيهمَا: النظرُ إلى "لغةِ القومِ" و"لغةِ اليومِ" كَحالتيْن اثنتيْن للغةٍ واحدةٍ، مِمَّا يُفيدُ – ولوْ أنَّ الأمرَ لمْ يُذكَرْ بشكلٍ مباشرٍ- بأنَّ الحالة الراهنَة للغةِ القومِ حالةٌ فاسدةٌ (Dégradé).

يُمْكنُ النظرُ للحالتيْن – الحالةُ الأولى للغةٍ قديمةٍ وذات قيمةٍ مرجعيةٍ، والحالةُ الثانيةُ معاصرةٌ تفتقدُ للقيمةِ المرجعيةِ- بوصفهمَا تنوّعيْنِ لِوضْعٍ يتصفُ بالازدواجيةِ اللغويةِ (:الديكْلوسيَا). وبالتّالِي لا يُمكنُ الجزْمُ بأنَّ لغةَ اليومِ تحيلُ علَى تنوّعٍ محلّيٍ فقطْ؛ بل يُمْكنُ أنْ تُحيلَ أيضًا على تنوُّعٍ مُشتَرَكٍ.

لا يلزمُ إهمالُ معطَى أنهُ بعدَ مُضيِّ العهدِ الأمويِّ وحُلولِ العهْدِ العبّاسيِّ لمْ يكُنِ النحاةُ العربُ يعتبرونَ لغةَ العهْدِ الجديدِ ذاتَ قيمةٍ مرجعيةٍ، ولوْ صدرتْ عنْ أشهرِ شعراءِ وكُتّابِ هذا العهدِ. [نسْتحضِرُ في هذا المقام شعرَ المتنبّي] وذلكَ بسببِ تضييقِ نطاقِ القيمةِ المرجعيةِ [:الفصاحةِ] للغةِ الراقيةِ؛ ممَّا جعلَ قيمةَ "لغةِ اليومِ" المرجعيةِ اليومَ مشْكوكٌ فيهَا.

بقيَ سؤالٌ وحيدٌ: كيفَ يُعقلُ أنَّ عبارةَ: "لغةُ القومِ" تحيلُ لدَى ابنِ فارسٍ علَى تنوُّعٍ لُغويٍّ مرْجعيٍّ، في حين عبارةٌ مُجاورةٌ لهَا استعْمَلهَا الجغرافيُّ المقدَّسِيُّ (ت. نهاية ق ٤هـ/١٠م)، وهيَ: "لسانُ القوْمِ" تحيلُ بجلاءٍ علَى النّوعِ اللغَويِّ المحلّيِّ (Variété Vernaculaie).

نطالعُ عبارةَ المقدّسِيّ اللافتةَ للنظرِ في ختامِ تحليلٍ جديرٍ بالاهتمامِ بدورهِ وردَ بمقدمةِ كِتابِ "أحْسنِ التقاسيمِ في معرفةِ الأقاليمِ" (ص: ٣٢ منْ طبعةِ "دي كويج" (De Goeje) حينَ أشارَ إلى أنّهُ سيصفُ –إلى درجة المحاكاةِ- لسانَ كلّ بقعةٍ قائلاً: "ألاَ ترَى إلى بلاغتِنَا في إقليمِ المَشْرِقِ لأنهمْ أصحُّ الناسِ عربيةً لأنهمْ تكلّفُوهَا تكلُّفًا وتعَلّمُوهَا تلقُّفًا، ثمَّ إلى رَكاكةِ كلامِنَا في مصْرَ والمغْرِب وقُبْحِهِ في ناحيةِ البطائحِ لأنهُ لسانُ القوْمِ".

إنها عبارةٌ تَتّسِمُ بالتنافُضِ، لأنَّ الجمعَ بيْنَ "اللسانِ" و"القوْمِ" وردَ في القرآنِ الكريمِ (سورة إبراهيم- الآية ٤) في قولِهِ تعالَى: (وَمَا أَرْسلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبيِّنَ لَهُمْ). تُفْضِي هذهِ الآيةُ –التي نُوَظّفُهَا مُقدِّمَةً لِلتعليلِ القياسِيِّ- إلى خُلاصةٍ عَبْرَ مُقَدِّمَةٍ ضِمْنِيَةٍ (مُحمّدٌ رسولُ اللهِ إلى قومهِ) بأنَّ لغةَ القرآنِ الكريمِ هيَ لغةُ مُحَمَّد (ﷺ)، بمعنَى لغةُ قريْشٍ، وهيَ قبيلةُ مكّةَ التي ينْتَمِي إليْهَا النبيُّ مَحَمَّدٌ (ﷺ).

ماذَا تتضمّنُ الفرضيةُ الدينيةُ في موضوعِ اللغةِ القُرآنيةِ بما تحْمِلُهُ الثانيةُ (لغةُ قريْشٍ= اللغةُ الفُصحى) منْ بُعدٍ عَقَائِدِيٍّ مَحْضٍ: وَهيَ مثلَ لُغةِ القرآنِ الكريمِ الأكثرُ فصاحةً منْ مجموعِ كلامِ العربِ.

إنهُ ابنُ فارسٍ ذاتُهُ الذي صاغَ بجلاءٍ الفرضيةَ الدينيةَ في بابٍ آخرَ منْ أبوابِ "الصاحبيّ" (ص

٥٢-٥٣) عنْونَهُ ب"بابُ القولِ في أفصحِ العربِ"، لكنْ معَ تلبيسِهَا مشْهَدًا لسانِيًا اجتماعِيًا، وهي تعود في الحقيقة إلى "الفَرَّاءِ" (ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م):

بما أنَّ أهلَ قريْشٍ أفصحُ العربِ لأنهمْ حُماةُ الكعْبةِ المحرّمةِ التي كانَ يحُجُّ إليهَا مختلفُ القبائلِ العربيةِ، ممَّا مكَّنَهُمْ مِنْ تخيُّرِ مَا يُميِّزُ لغةَ كلِّ قبيلةٍ، فَوَراءَ المنظورِ العَقَدِيِّ (لغةُ القرآنِ= لغةُ قُريْشٍ= اللغةُ الفُصْحَى) تكمُنُ الفرضِيةُ اللسانيةُ، ومفادُهَا أنَّ اللغةَ الفُصحَى نِتاجُ "لغةٍ مشتركةٍ" (Koinéisation)[١٩].

إنَّ التناقُضَ ظاهِرِيٌّ فقطْ، نابعٌ مِنَ الاختلافِ الموجودِ بينَ المُقدَّسِيِّ وابنِ فارسٍ، اختلافٌ غابَ عنِ المستعربينَ، ذلكَ أنَّ المقدَّسيَّ عربِيُّ المولِدِ والنّشأةِ، يُؤكِّدُ في كتابِهِ في سياقِ عدمِ محاكاةِ لغاتِ بقيةِ البِقاعِ: "تكلّمْنَا بلغةِ الشامِ لأنهَا إقليمِي الذي بهِ نشأتُ"، منْ ثمّ يُمكنُنَا أنْ نسْتشِفَّ في أقْوالِهِ نزْعةً شامِيةً (Syrianisme)، في حين ابنُ فارسٍ فارسِيُّ الأصْلِ اكتسَبَ العربيةَ كلغةٍ أجنبيةٍ، وبالتالي مِنَ المُحتمَلِ أنْ يكونَ المُقدَّسِيُّ الكاتبَ الذي أَشارَ بشكلٍ واضحٍ إلى الحالة المُزدوِجة للغةِ العربيةِ: فمِنْ جهةٍ هُناكَ لغةٌ محَلّيةٌ، أو بالأحْرَى "وطنيةٌ" بالنظرِ إلَى استعمالِهِ عبارةَ: "لِسانُ القومِ"، وهيَ للمُتكلّمِينَ بالعربيةِ منْ أهلِ البلدِ، وقدْ تفجَّرتْ في "لغاتٍ متنوِّعةٍ" (بأنماطٍ كلاميةٍ متعدِّدةٍ) بدرجاتٍ مختلفةٍ منَ "الفَسادِ"، وهناكَ منْ جهةٍ ثانيةٍ العربيةُ المُشتركةُ بالمعنَى الدقيقِ للعربيةِ التي يتعلّمُها الناسُ دونَ أنْ تكونَ بالضرورةِ لُغةَ المنشإِ للمستعمِلينَ.

يَرَى المُقَدَّسيُّ أنَّ التميُّزَ يعودُ للمشْرقِ –حينما كانتْ بغداد عاصمةَ الإمبراطورية المقسَّمَةِ إلى ولاياتٍ عربيةٍ وإماراتٍ إيرانيةٍ- وهُوَ مُصطلحٌ لا يُمَثِّلُ المَشرِقَ العربِيَّ، وإنّمَا يُمثِّلُ خُراسانَ (Samanide) وعاصمتُهَا نِيسَابُورْ.

عَمَدَ المقدَّسِيُّ في منْحًى آخرَ إلى رصْدِ أخطاءِ "اللحنِ" التي ارتكبَهَا كبيرُ قُضاةِ بغدادَ في مجالسِهِ.. هُنا أيضًا لا يصفُ الكاتبُ صراحةً وضعَ الازدواجيةِ اللغويةِ (الدكْلوسْيَا)، وقدْ يكونُ أشارَ إليْهَا ضِمْنيًا منْ طرفٍ خَفِيٍّ باقْتراحِهِ على المتكلّمينَ في هذا الجُزءِ منَ الإمبراطوريةِ صيغةً توْفيقيةً بينَ العربيةِ المحَلّيةِ والعربيةِ الفُصْحَى المُشتركَةِ.

إذَا صحَّ تأويلُنَا؛ فإنَّ رأيَ المقدَّسِيّ يسبقُ تصوُّرَ "فِرجْسونْ" (Ferguson) (١٩٥٩) عنْ وضعِ الازدواجيةِ اللغويةِ الذي شاعَ في الوقْتِ الراهنِ بينَ أوْساطِ اللسانيينَ المستعربينَ.

نُشيرُ في الخِتامِ إلى أنَّ كلَّ هاتهِ النصوصِ التي عرَضْناهَا تثيرُ أسئلةً أكثرَ مِمَّا تُقدِّمُ أجوبَةً؛ غيرَ أنَّ اكْتِشافَهَا أوْ إعادةَ اكتشافِها والجمعَ بينَها يسمَحُ بتشكيلِ رُؤيةٍ تتّضحُ شيئًا فشيئًا عنْ تاريخِ

[١٩] يُراجعُ Miller (2006, pp. 593-597) فيما يتصل بالعلاقة بين "اللهجة" (Dialecte) و"اللغة المشتركة" (Koinè).

العربيةِ وتمْثيلاتِهَا.

المراجع

ابن فارس، أحمد. (١٩٩٧). *الصاحبي في فقه اللغة ومسائلها وسنن العرب في كلامها*. دار الكتب العلمية.

بن جني، أبو الفتح عثمان. (١٩١٤). *الخصائص* (المجلد ١). دار الكتب الخديوية.

بن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. (١٩٦٧). *مقدمة ابن خلدون*. مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني.

الجاحظ، عمرو بن بحر بن محبوب. (١٩٤٨). *البيان والتبيُّن*. تحقيق عبد السلام محمد هارون. دار النشر ناقصة.

الزجاجي، أبو القاسم. (١٩٧٣). *الإيضاح في علل النحو* (الطبعة الثانية). تحقيق مازن المبارك. دار النفائس.

زيدان، جُرجي. (١٨٩٢). اللغة العربية الفصحى واللغة العامية. *مجلة الهلال* ١، ٢٠٠-٢٠٤.

شيخو، لويس. (١٩٢٢). مجالس إيليا مطران نصيبين: المجلس السادس. *مجلة المشرق* ٢٠، ٣٦٦-٣٧٧.

المقدسي، شمس الدين. (١٩٩١). *أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم* (الطبعة الثالثة). مكتبة مدبولي.

Blanc, H. (1979). Diachronic and Synchronic Ordering in Medieval Arab Grammatical Theory. In J.

Blau, S. P., M. J. Kister, & S. Shaked (Eds.), *Studia orientalia memoria D.H. Baneth Dedicata* (pp.155-180). The Magnes Press.

Drettas, G. (1981). La diglossie : un pèlerinage aux sources. *Bulletin de la société de linguistique de Paris*, fascicule 1, 61-98.

Eggen, N. S., & Issa, R. (2017). *Philologists in the world. A Festschrift in honour of Gunvor Mejdell Oslo*. The Institute for Comparative Research in Human Culture.

Ferguson, C. A. (1959). Diglossia. *Word, 15*(2), 325-340.

Fernández, M. (1995). Los orígines del término diglosia. Historia de una historia mal contada. *Historiographia Linguistica XXII*: 1/2: 163-195.

Fleisch, H. (1961/1990). *Traité de philologie arabe. Vol. 1. Préliminaires, phonétique, morphologie nominale* (2e éd.). Dar El-Machreq.

Grévin, B. (2012). *Le parchemin des cieux. Essai sur le Moyen Âge du langage*. Le Seuil.

Jakobson, R. (1963). Linguistique et poétique. *Essais de linguistique générale*, *1*, 209-248.

Kaye, A. S. (1994). Formal vs. Informal in Arabic: Diglossia, triglossia, tetraglossia, etc., polyglossia—multiglossia viewed as a continuum. *Zeitschrift für arabische Linguistik*, (27), 47-66.

Krumbacher, K. (1902). *Das Problem der neugriechischen Schriftsprache: Festrede gehalten in der öffentlichen Sitzung der Akademie des Wissenschaften zu München am 15. Nov. 1902*. Verlag der Akademie.

Larcher, P. (2003). Diglossie arabisante et fuṣḥā vs ʿāmmiyya arabes : essai d'histoire parallèle. Dans *History of Linguistics 1999. Selected Papers from the Eighth International Conference on the History of the Language Sciences (ICHoLS VIII), Fontenay-St.Cloud*. France, 14-19 September 1999, édité par Sylvain Auroux et al., coll. SIHoLS 99, 47-61. Benjamins.

Larcher, P. (2006a). Que nous apprend vraiment Muqaddasī de la situation de l'arabe au IVe /Xe siècle? *Annales Islamologiques*, *40*, 53-69.

Larcher, P. (2006b). Sociolinguistique et histoire de l'arabe selon la Muqaddima d'Ibn Khaldûn (VIIIe /XIVe siècle). Dans P. G. Borbone, A. Mengozzi et M. Tosco (Eds.) *Loquentes linguis. Studi linguistici e orientali in onore di/ Linguistic and oriental studies in honour of/ Lingvistikaj kaj orientaj studoj honore al Fabrizio A. Pennacchietti* (pp. 425-435). Harrassowitz.

Larcher, P. (2007). Les origines de la grammaire arabe, selon la tradition: Description, interprétation, discussion. Dans E. Ditters et H. Motzki (Eds.), *Approaches to Arabic linguistics presented to Kees Versteegh on the occasion of his sixtieth birthday* (pp. 49, 113-134).

Brill.
Larcher, P. (2008). Al-lugha al-fuṣḥā: Archéologie d'un concept «idéolinguistique». *Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée, 124*, 263-278.
Marçais, W. (1930). La diglossie arabe. L'Enseignement public. *Revue pédagogique, 1041/2*: 401-409.
Mejdell, G. (2012). 'High' and 'Low' varieties, diglossia, language contact, and mixing: Social processes and linguistic products in a comparative perspective. In G. Mejdell and L. Edzard (Eds.), *High vs. low and mixed varieties: Status, norms and functions across time and languages* (pp. 9-23). Wiesbaden
Miller, C. (2006). Dialect Koine. In K. Versteegh, M. Eid, A. Elgibali, M. Woidich & A. Zaborski (Eds.), *Encyclopedia of Arabic Language and Linguistics (Vol. 1*, pp. 593-597). Brill.
Prudent, L. F. (1981). Diglossie et interlecte. *Langages*, (61), 13-38.
Psichari, J. (1928). Un pays qui ne veut pas de sa langue. *Le Mercure de France*, n° 727, 39e année, tome CCVII, 61-121.
Versteegh, K. (1995). *The explanation of linguistic causes, Az-Zajjājī's theory of grammar, introduction, translation, commentary*. John Benjamins.

تعليق على الترجمة

يتناولُ الباحثُ "بييرْ لارْشِي" في هذَا المقالِ موضوعَ "الازداوجيةِ اللغويةِ"، إنّهُ موضوعٌ منْ موضوعاتِ اللسانياتِ الاجتماعيةِ، نالَ حظًّا وافرًا منْ عِنايةِ المستشرقينَ والمستعربينَ في دراستِهِمْ للعربيةِ، منْ منطلقِ تعدُّدِ أشكالِهَا بالنظرِ إلى تاريخِهَا العريقِ، وطرُقِ التلفُّظِ بهَا نتيجةَ انتشارهَا في فضاءٍ جغرافيٍّ فسيحٍ، والناظرُ في رُؤَى الدارسينَ لهذا الموضوعِ يُطالِعُ بدْءًا:

تصوُّرَ المستشرقِ الفرنسِيِّ "وِلْيام أمبْرُوَزْ مَارْسِي" (William Ambroise Marçais) (1872-1956) (المتعصِّبُ لليمينِ المُناصِرِ لِسياسةِ الاستيطانِ بالجزائِرِ)، فقدْ سبقَ لهُ أنْ تطرّقَ لموضوعِ "الازدواجيةِ اللغويةِ" في العالمِ العربِي عامَّةً وبالجزائرِ خاصةً، فمِمَّا أوْردهُ في هذا الصددِ قولُهُ: "كيْفَ أنظرُ إلى العَربيةِ؟ هلْ هيَ لسانٌ واحدٌ أمْ لسانانِ؟ كلُّ منْ قَرَأَ التّناقُضاتِ اللغويةِ ل "فيكْتورْ هِنْري" (Victor Henri) يَسْتكْشفُ أنَّ الكاتِبَ يَعْتبِرُهَا مسألةً لا جَدْوَى مِنْهَا.

إنّنا نعْتبرُ الازدواجيةَ عبارةً عنْ وضعيْنِ بِذاتِ اللّسانِ، فهُما مُختلفانِ إلى درجةِ أنَّ معْرفةَ الحالة الأولى لا يترَتَّبُ عنْه معرفةُ الحالة الثانِيّة، ومُتشابِهانِ إلى درجةِ أنَّ مَعْرفةَ أحدهِمَا يُيَسِّرُ بشكْلٍ جَلِيٍّ اكْتِسابَ الآخرِ.

علَى أيِّ حالٍ، فالازدواجيةُ اللغويةُ أداةٌ يُعبِّرُ عنْهَا في الفِكْرِ بشكلٍ يصدِمُ التقاليدَ الفكْرِيَةَ الغربيةَ: فهِيَ حيوانٌ بِرَأْسَيْنِ، في غايةِ الضّخامةِ، إلى درجةٍ يتعذَّرُ مَعَهَا على الخُطَطِ المدْرَسِيَةِ إيجادُ حلٍّ للمُعْضِلَةِ، بسببِ أنَّ هاتِه الخُططَ لمْ توضعْ أصلاً لمُواجهةِ المخلوقاتِ العجيبَةِ"[٢٠].

[20] Marçais (1930, pp : 401-409)

لا تخْفَى على الناقِدِ النفحَةُ الفرنكُفونيةُ الحاضرةُ في تصوُّرِ المستشرقِ، غيرَ أنَّ النصَّ يُتَرْجِمُ كذلكَ وُجودَ صِدامٍ لغويٍّ وثقافِيٍّ. إنّهُ صِدامٌ ناتجٌ عنِ النظرةِ التي يتصوَّرُ بها أنصارُ اللسانِ الفَصيحِ، مُقابلَ النظرةِ الطاغيةِ بأذهانِ أنصارِ التنوّعِ اللهجيّ ("لغةُ القومِ" إزاءَ "لغةِ اليومِ" بتعبيرِ "ابنِ فارسٍ")، في حين يلزمُ الباحثُ في اللسانياتِ (بمُختلفِ فروعِهَا وتوجّهاتِهَا) التقيُّدَ بالنظرةِ الموضوعيةِ (العلميةِ) في دراستهِ للسانِ، والنأيَ عنِ النظرةِ المعياريةِ (شِعارُ اللسانياتِ البنيويةِ الوصفيةِ على وجهٍ خاصٍّ).

اعتبرَ المُستعربُ الفرنسيُّ منْ أُصولٍ جزائريةٍ "جَمالْ الدين كُولوغلي" (Djamel-Eddine Koulougli) (1947-2013) أنَّ النبرةَ التي عبَّرَ بهَا "وِلْيَامْ مَارْسِي" - بعدَ مرورِ مائةِ سنةٍ علَى استعمارِ الفرنسيينَ للجزائرِ - عنِ الحالة اللغويّة بالمغربِ الأوسطِ وبالعالمِ العربيّ عامةً تتميَّزُ بالعُنْفِ، بلْ بالقدْحِ أيضًا.[٢١]

إنّهَا نبرةٌ استمرّتْ مَعَ الأسَفِ بأقْلاَمِ دَارِسينَ آخرينَ، منْ هؤلاءِ نجدُ: "كُولانْ" (G, S, Colin) (1893-1977) الذِي يَعتبرُ أنَّ العربَ لا يَتكلَّمُونَ سِوى بالعامّيةِ، في حين الفُصْحَى يُقتصَرُ تدَاوُلُهَا على النُّخْبَةِ، وهِيَ معَ ذلِكَ تَظَلُّ مُجَرَّدَ لِسانٍ مَكْتوبٍ.[٢٢]

فهلْ يصحُّ اعتبارُ الصِّدامِ بيْنَ الفصيحِ والعاميِّ منْ جنْسِ الصِّراعِ القائِمِ بيْنَ العربيةِ وغيْرِها منَ الألْسنَةِ الغرْبيةْ التي تُعَدُّ لِسانَ المُستعمِرِ أولاً، ومؤْئِلَ الرافدِ المُصْطلحِيِّ ثانيًا، وعُنْوانَ الحَداثةِ ثالثًا (عندَ البعضِ)؟ أمْ هُوَ مُجَرّدُ صِدامٍ بينَ المنطوقِ (المتَداولِ اليوميِّ) منْ لدُنِ مُختلفِ فِئاتِ المجْتمعِ، والمكتوبِ السائِدِ بالخُطَبِ الرسميةِ والمقرّراتِ المدرسيةِ والصحافَةِ المكتوبةِ، والمُنتشَرِ بمُعظمِ الإبداعاتِ الأدبيةِ؟

سبقَ ل"هُنْري فْليشْ" (Henri Fleisch) (1904-1985) أنْ رَسَمَ الحالة اللغويَّة علَى نحوٍ لا يخلُو منْ دقّةٍ حينَمَا اعتبرَ الحالة جَلية لكلِّ مُتتبِّعٍ؛ إذْ هُناكَ لِسانٌ مُشْتركٌ مكْتوبٌ، وهناكَ لهَجاتٌ مُتداولةٌ في شُؤون الحَياةِ الأُسَريةِ والعلاقاتِ بينَ الأفْرادِ في الواقعِ المعيشِ، في حين يرتبطُ اللسانُ المُشترَكُ المكتوبُ بشُؤونِ الحياةِ الاجتماعيةِ المتداولةِ بالصُّحُفِ والمِذْياعِ والخُطبِ الدّينية ولافِتاتِ المتاجرِ، بلْ متداولةٌ أيضًا في الرّسائلِ الخاصةِ. [٢٣]

غيرَ أنَّ مَا اعتبرهُ المُستشرِقُ واقعًا جليًا هُوَ في الواقعِ أمرٌ لا يخلُو منْ تعْقيدٍ، يتمثَّلُ في التداخُلِ القائمِ بينَ ما هُوَ فصيحٌ ومَا هُوَ عامِّيٌّ. كمَا أنَّ المنابرَ التي ذكرَ أنَّها تَستعمِلُ الفُصحى شاعتْ بها العامياتُ بشكلٍ مُثيرٍ، منْ مِثلِ المذياعِ والسّينِما، بلْ آثرَ بعضُ الخُطباءِ أيضًا النأيَ عنِ الفصيحِ

[21] Koulougli (1996, pp. 287-299)
[22] Séraphine (1945, pp. 191-247)
[23] Fleisch (1961, p. 169)

بغايةِ تقريبِ مَضامينِ خُطبِهِمْ إلى أكبرِ عددٍ مِنَ الجُمهورِ.

شكَّكَ بعضُ المُستعربينَ في سَلامةِ الحالة اللغويّة بالعالمِ العربيِّ في ظلِّ الازدواجيةِ، نُطالعُ منْ هولاءِ: "جيرارْ لوكامْطْ"[٢٤] (Gérard Lecomte) (1926-1997)، في قولهِ بإمكانيةِ اقترابِ الدَّوارجِ منَ العربيةِ الفُصحَى معَ تطويرِ التقدُّمِ المشهودِ في التمدرُسِ وانتشارِ الصحافةِ ونشراتِ المذياعِ، كما أنَّ الفُصحَى خضعتْ بدورِهَا لتبسيطٍ جعلَهَا في مُتناولِ أكبرِ قدرٍ من الجُمهورِ.

تُجمِعُ الكثيرُ من الدراساتِ على أنَّ "فرگْسُون" (1921-1998) هو أولُ من رسَّخَ مفهومَ "دگْلوسيا" ضمنَ الجهازِ المفاهيميِّ للسانياتِ الاجتماعيةِ.[٢٥] وعرَّفَهُ على النحوِ الآتيِّ: الازداوجيةُ اللغويةُ وضعٌ لغويٌّ نِسْبِيُّ الاستقرارِ، يتميزُ بتواجُدِ لهجاتٍ تُزاحِمُ اللسانَ الفصيحَ، وهيَ مُتداولةٌ في عصرٍ سابقٍ، أوْ بينَ أوساطِ جماعةٍ لغويةٍ، كما تَتَواجدُ داخلَ الأوساطِ المدرسيةِ.

لمْ ينشُزِ الباحثُ الأمريكيُّ عنْ توجُّهات الكثيرِ منَ المُستعربينَ مِمَّنْ تحدَّثَ عنِ اللغةِ الوُسْطى التي اعتبرَهَا الحلَّ الأمثلَ لهذا الازدواجِ، كما هوَ الحالُ في اليونانيةِ الحديثةِ التي يُتداولُ بها ما يُسمَّى بِ "Mikti grecque"، وفي الهايْتيةِ التي يَتداوَلُ أهلُهَا لغةً خليطةً (Créole)، إضافةً إلى كثرةِ المُقترضاتِ.[٢٦]

ظهرتْ بعدَ هاتِهِ الجُهودِ مُقارباتٌ جَديدةٌ تتأسَّسُ على نقدِ واقعِ الازدواجِ، وتقولُ بالطبقيةِ، نذكُرُ منْهَا دراسةَ "حاييمْ بْلانْك" (Haïm Blanc)[٢٧] (١٩٢٦-١٩٨٤) الذي ميَّزَ بينَ خمسةِ أشكالٍ للعربية:

- عربيةٌ فُصْحَى (Classic Standard) (Classique Standard)
- عربيةٌ مُحَوَّلَةٌ (Classique modifié) (Modified Classic)
- شِبْهُ الفُصحى أوِ العاميةُ الراقيةُ (Semi-Littéraire ou Dialectal relevé)
(Semi-Literary or Dialectal raised)
- عامّيةٌ مشتركَةٌ (Koinetized Dialect) (Dialectal Koinétisé)
- عاميةٌ قُحَّةٌ (Pure dialect) (Dialectal pur)

من المرجَّحِ أنَّ دراسةَ "السعيد محمد بدوي" (١٩٧٢) تسيرُ في هذَا الاتّجاهِ (الطبقِيّ)، إذْ اقترحَ بدورِهِ خمسةَ مُستوياتٍ في اللغةِ:

- فهُناك: فُصْحَى التُّراثِ، وفُصْحَى العَصْر، وعامّيةُ المُثقّفينَ، وعامّيةُ المُتنوِّرينَ، وعامّيةُ

[24] Gérard (1960, p. 475).
[25] Ferguson (1959, p. 435).
[26] Ferguson (1959, p. 433).
[27] Blanc (1960. p. 85).

الأمّيينَ.[٢٨]

ذلكَ أنهُ فرَّعَ الطبقةَ الثالثةَ السالفةِ الذكرِ في تقسيمِ "حاييمْ" (: العامّيةُ الراقيةُ) إلى مُستويَيْنِ: عامّيةُ المثقفينَ وأُخرَى للمُتنوّرينَ، وهُمَا في نظري لفئةٍ واحدةٍ، في حين أهملَ طبقةَ العامّيةِ المُشتركةِ.

على الرغمِ منْ انتقادِ الباحثِ "مايْسليسْ" (Meiseles, Gustav) المقاربةَ الطبقيةَ في دراسةِ تنوُّعِ مُسْتوياتِ اللغةِ العربيةِ، فقدْ رصدَ بدورِهِ أربعةَ مُستوياتٍ:

- عربيةُ الأدبِ (أو الفُصْحى) (Arabe littéraire ou Standard) (Literary or Standard Arabic)
- عربيةٌ دونَ الفُصْحَى (Arabe sub-standard) (Sub-Standard Arabic)
- عربيةُ المثقفينَ (Arabe cultivée) (Cultured arabic)
- عامّياتٌ فُحّةٌ (أو أساسية) (Dialectes pures ou basiques) (Pure or basic dialects) [٢٩]

ظهرتْ مُقترحاتٌ تَتَأسَّسُ على مبدإِ "الاستمراريةِ"، تنْتقدُ مِعيارَ "الطبقيةِ"، وتندرجُ ضمنَ "لسانياتِ المُتغيراتِ" (Linguistique Variationniste) التي صيغتْ مبادِؤُها في أعمالِ رائدِ اللسانياتِ الاجتماعيةِ الأمريكيةِ "وِلْيامْ لابوفْ" (William Labov) (١٩٦٣-١٩٦٦-١٩٧٠)، ما دفعَ الباحثينَ ممَّنْ يَتبنَّى هذا التوجُّهَ إلى البحثِ في ظواهرَ لُغويةٍ تتميَّزُ بالتنوُّعِ.

فهناكَ منَ الباحثينَ منْ تناولَ موضوعَ المطابقةِ في المركَّبِ الاسميّ للغةِ الوُسطى.[٣٠]

ودرَسَ آخرون تنوّعَ أشكالِ أسماءِ الإشارةِ في حواراتِ المتكلمينَ بالعربيةِ منَ المشارقةِ بينَ الفصحَى والعاميةِ.

يُجمِعُ أصحابُ هذا التوجُّهِ على أنَّ مُعدَّلَ تواتُرِ التنوّعاتِ الخطابيةِ رهينٌ بتنوُّعِ المقاماتِ التواصُليةِ، ما يتوافقُ مع نتائجِ أبحاثِ اللسانيِّ "لابوفْ".

كمَا وُجِّهتْ انتقاداتٌ لتوجُّهِ الاستِمْراريةِ، يَدورُ مُعظمُها حوْلَ فكرةٍ واحدةٍ، مَفادُهَا أنَّ تنوُّعَ الظواهرِ المرصودةِ أسهمَ في مُعظمِ الأحيانِ في إتْلافِ الخَيْطِ الرابطِ بَيْنَهَا.

بَزَغَ توجُّهٌ ثالثٌ يفحَصُ إشكاليةَ "الازداوجيةِ اللغويةِ"، يَندَرِجُ ضِمْنَ ما سُمِّيَ باسْمِ "مُقارباتِ

---

[٢٨] بدوي (١٩٧٢، ص. ٨٥)

[29] Meiseles (1980, pp. 118-148).

[30] Sallam (1979, pp. 20-56; 1980, pp. 77-100).

اللغاتِ الثلاثِ" (Approches triglossiques) (Triglossic approaches). وقدْ تولَّدَ بفعلِ تسجيلِ الاختلافِ القائمِ بينَ العربيةِ الفُصحَى القديمةِ (الكلاسيكيةِ) (Classique) (Classic) والعربيةِ الفُصْحَى الحديثَةِ، مَا أفرزَ اصطلاحًا جديدًا هُوَ "اللغةُ الوُسطى" (Langue médiane) (Middle language)، لغةٌ تتميّزُ أساسًا بالاستغناءِ عنِ العلاماتِ الإعرابيةِ، وغالبًا ما تُستعملُ بالمنابرِ العِلميةِ، كالجامِعاتِ.

يُشيرُ الباحثُ "لوكامْط" إلى أنَّ الجامِعِيّينَ يَستعملونَ اللغةَ الوُسْطى بفُصولِ الدرْسِ، وسُرعانَ ما يعودونَ إلى التحدّثِ بالدَّوارجِ بمُجرّدِ خُروجِهِمْ إلى الشارعِ.[٣١]

قامَ الباحث "كولوغلي" بجرْدِ الدراساتِ التي انكبّتْ علَى دراسةِ اللغةِ الوُسْطى، فرصدَ مِنْها إلى حُدودِ القرنِ العشرين:
- دراساتُ "مِيتْشيلْ" (Mitchell) (1976-1978-1980-1986).[٣٢]
- دراسةُ "صَليبْ" (Salib) (1979)[٣٣] (وهي أطروحةٌ قدَّمها لنيْلِ شهادةِ الدُّكتوراه).
- دراسةُ "مَيْسِيليسْ" (Meiseles) (1980)[٣٤].
- دراسَتَا "پَالْفَا" (Palva)(1969-1982)[٣٥].

نُشيرُ - ضمنَ الحديثِ عنْ تداخُلِ العامّياتِ بالعربيةِ الفُصحَى- إلى أنَّ الدراسينَ العربَ أكسبُوا الفُصْحَى تسمياتٍ متعددةً تِبَعًا لقيودٍ زمنيةٍ أوْ موضوعيةٍ أوْ كتابيةٍ.

- فمنَ القُيودِ الزمنيةِ، هناكَ: اللغةُ العربيةُ الفُصحى القديمةُ، العربيةُ المُعاصرةُ، العربيةُ الفُصحى المُعاصرةُ.

- ومنَ القيودِ الموضوعيةِ، هناكَ: العربيةُ القرآنيةُ.

- ومنَ القيودِ الكتابيةِ، هناكَ: العربيةُ الحديثةُ المعاصرةُ المكتوبةُ.[٣٦]

كما حرِصَ رئيسُ فريقِ "مَكْنَزِ اللغةِ" المرحومُ "أحمَد مُختارْ عُمرْ" علَى التمييزِ داخلَ العربيةِ الفصيحةِ بيْنَ أحدَ عشرَ نمطًا، أطلق عليهَا التسمياتِ التاليةَ:
١- رصيدُ الألفاظِ الإيجابيةِ القرآنيةِ المعاصرةِ، ويُقدَّرُ بعددِ سبعة آلاف وستمائة لفظٍ، من

[31] Lecomte (1960, p. 457).
[32] Mitchell (1976, pp. 70-86)
[33] Salib (1979) عن Koulougli (1996, pp. 27-28)
[34] Meiseles (1980, pp. 118-148)
[35] Palva (1969, pp. 1-41).
[٣٦] يجدُ القارئ كلَّ هاته التسميات في دراسة الوعر (١٩٨٧، ص ص. ٧٥-٨٥).

مجموع ألفاظ المكنز المقدرة ب: "أربع وثلاثون ألف وخمسمائة وثلاثون لفظا" (٣٤٥٣٠)، مَا يُشكِّلُ ما يُناهزُ ٢٢%.

٢- رصيدُ الألفاظِ الإيجابيةِ المُعاصرةِ، بمجموعِ: "اثنا عشرَ ألفٍ وأربعمائة لفظ"، بما يُناهزُ ٣٦% من مجموع وحدات المكنز.

٣- رصيدُ الألفاظِ الإيجابيةِ التراثيةِ، بما يقْرُبُ من "سِتة آلاف لفظ"، ما يُشكّلُ ١٧ %.

٤- رصيدُ لغةِ المثقفينَ، بمجموعِ: "خمسُمائةِ ألفٍ وخمسمائة وسبعون لفظًا"، ما يقربُ منْ نسبةْ ١٠ %.

٥- رصيدُ الألفاظِ المولّدةِ أوِ المُحدثةِ، بمجموعِ: "ألف ومئتا لفظٍ"، أيْ ما يُشكّلُ ٣,٥ %.

٦- رصيدُ الألفاظِ الإيجابيةِ القرآنيةِ التراثيةِ، لا تتعدى: "تسعمائة وستون لفظا"، بما يُقارب ٢,٥%.

٧- رصيدُ الألفاظِ السلبيةِ بمجموعِ: "ثلاثمائة لفظ"، بما يقرُبُ من ١ %.

٨- رصيدُ المصطلحاتِ العلميةِ، سجَّلَ منها خمسةَ وستينَ مصطلحًا بأقلِّ منْ ١- % .

٩- رصيدُ الألفاظِ المبتذلةِ، جردَ منهَا ٤٥ لفظًا فقطْ، بأقلِّ منْ ١- % .

١٠- رصيدُ الألفاظِ المحظورةِ، رصدَ منْها ١٤ لفظًا فقطْ، بأقلِّ منْ ١- % .

١١- رصيدُ الألفاظِ الرسميةِ، حَصَرَ منها خمسةَ ألفاظٍ فقطْ، بأقلِّ منْ ١- % .

أما الرصيدُ العامِّيُّ المتداخِلُ بالفصيحِ ضِمْنَ الرصيدِ المعجميِّ للمكنزِ، فهو يندرجُ في نِطاقِ نمطٍ سمّاهُ:

١٢- رصيدُ ألفاظِ اللهجاتِ أوِ اللغاتِ المحكيةِ، يحتلُّ عددَ: ثلاثمائة لفظٍ وثلاثونَ لفظاً"، بما يُقاربُ ١ % . وهو إنْ كانَ عَددًا قليلاً لا يُؤبَهُ لهُ؛ فإنه دليلٌ على مُعطىَ التزاحُمِ الواقعِ في اللغةِ بينَ المستوياتِ الفصيحةِ والمستوَى العامِّيِّ. نُبَرِّرُ سببَ نُدْرةِ رصيدهِ بالمكنزِ: أنهُ لا يُسمحُ لهُ بوُلوجِ عالَمِ المُعجمِ سوى بتقييسٍ مُؤَسَّسيٍّ، أوْ في أنْدرِ الحالاتِ بنهجٍ خاصٍّ لدَى مُصنِّفِ المُعجمِ أوِ القاموسِ، غير أنَّ مَعاجم اللهجاتِ قائمةٌ وموجودةٌ ضمنَ الصناعةِ القاموسيةِ.

مميزات المقال المترجم:

تتجلى في المناحي التالية:

- إرجاع "لارشي" كلمة "دكْلوسيا"إلى مصدرٍ أقدمَ منْ "فرڤسون" الذي نسبت إليه الكثيرُ من الدراساتِ استحداثَ المفهوم؛ إذْ أرجعهُ إلى الباحثِ اليونانيِّ "إيمانويل غويْدِس" (Emmanuel Rhoidis) (١٨٣٥-١٩٠٤)، فاستعمله سنة ١٨٨٥ مشيرًا إلى الحالة الثنائية باليونانية الحديثة، ثم تبعه في ذلك "پسيكاري" (Psichari) (١٨٤٥-١٩٢٩)ولحقهما "پرينو" (Prenot) (١٨٧٠-١٩٤٦). ويُعتبر "كرومباشير" (Krumbacher) (١٨٥٦-١٩٠٩) أوّلَ منْ استعملهُ في مجالِ الدراساتِ العربيةِ في معالجةِ وضْعِ العربيةِ – تِبعا لتحقيق "كاي" (Kay) (1994). يُصحّحُ "لارشي" هذهِ المعلومةَ مُوَضِّحًا أنّ "كرومباشيرْ" إنما اقتصرَ على مُقارنةِ وضعِ اليونانيةِ بلغاتٍ

أخرى، منها العربيةَ، مقارنةٌ أجراهَا "پسيكاري" أيضًا. يَستمرُّ "لارْشي" في مسلسلِ التحرّي عن بدايات استعمال مفهوم "دكْلوسيَا" في النطاق العربيّ، فيعتبرُ "وليام مارسي" (William Marçais) (١٨٧٢-١٩٥٦) الأجدرَ بهذا الوَسْمِ، إذ تُعتبرُ دراستُهُ أولَ تطبيقٍ للمفهومِ على العربيةِ سنة ١٩٢٨، كما تتمثلُ ميزةِ مقالِ "فرگسون" في الترسيخِ النظريِّ للمفهومِ بالاستنادِ إلى أربعِ حالاتٍ للازدواجيةِ بكلٍّ من اليونانيةِ والعربيةِ والسويسريةِ-الألمانيةِ والهايْتيةِ، ممَّا دفعَ بعضَ المُستعربينَ إلى اعتبارهِ أولَ من طرقَ الموضوعَ، ما يُفنِّدُهُ "لارشي" بمقاله هذا المُترجمِ.

- انتقَلَ الكاتبُ "لارْشي" بعد تأثيله مفهوم "ديكْلوسيَا" إلى البحثِ عنْ جُذورِ الازدواجيةِ في الدراساتِ الأكاديميةِ المُخصَّصةِ للعربيةِ؛ إذْ عادَ للتنقيبِ عنْ آثارِهَا بالقرنِ السابعِ عشرَ الميلاديِّ، فتابعَ استعمالاتِ المبشرينَ بالنصرانيةِ الوافدينَ إلى بُلدانِ المشرقِ بإسقاطهمْ ازدواجية: "لغةُ الأساقِفَةِ" [: اللاتينيةُ] – "لغةُ العامَّةِ" [:الإيطاليةُ] على الواقعِ العربيِّ ما أفْضى إلى ظهورِ اللغةِ السوقيةِ (Vulgaire) في النطاقِ العربيِّ أيضًا.

- استخلصَ "لارشي" من عملياتِ التنقيبِ وُجودَ وعْيٍ متأخِّرٍ (بين الحربين العالميتيْنِ) بتطبيق مفهوم "دكْلوسيَا" على حالِ اللغةِ العربيةِ، كمَا أنَّ هُناكَ وعْيٌ متقدِّمٌ بوجودِ الازدواجية ثلاثةَ قرونٍ قبلَ هذا التاريخِ.

- عَمَدَ الباحثُ "لارشي" – بعدَ هاتهِ الجولة التأريخيةِ- إلى تشخيصِ الحالة فيمَا يتصلُ بالازدواجيةِ في العربيةِ، فرأى أنَّ الازدواجية: "عربيةٌ كلاسيكيةٌ" / "عربيةٌ دارجةٌ" قائمةٌ، لكن دونَ توفُّرِ معطياتٍ عنْ مكانِ تداوُلها وزمنِ ظهورِهَا.

- أثبتَ الباحثُ في هذا السياقِ وجودَ الازدواجية منذُ العصرِ الوسيطِ (القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي)، لكنْ بإحالتِهَا على مُتغيِّرَيْ لغة واحدةٍ، لا على صِنفيْنِ لغويْنِ مختلفيْنِ، فشرَعَ في جردِ آراء نُظّار الفكر العرب تُجاهَ الموضوعِ، فذَكرَ منهمْ "الأخفشَ الأوْسطَ" (ت. ٢١٥ هـ/ ٨٣٠ م)، و"الجاحظَ" (ت. ٢٥٥ هـ/ ٨٦٩ م)، و"الزجاجيَّ" (ت.٣٣٧ هـ/٩٤٨ م)، و"المُقَدَّسِيَّ" (ت. ٣٨٠ هـ/ ٩٩٠ م) [ولا يذكر "بيير لارشي" وقد اشتهر بكثرة تحقيقاته مصدر ضبط اسم الجغرافيِّ على هذا المنوالِ، وقد عُرف بالمقدِسيّ في إشارة إلى موطن أجداده بالقدْس الشريفة]، و"ابنَ جنّي" (ت. ٣٩٢ هـ/ ١٠٠٢ م)، و"أحمدَ بنَ فارسٍ" (ت. ٣٩٥ هـ/ ١٠٠٤ م).

- يَجعلُ الباحثُ "لارْشي" "ابنَ فارسٍ" في مقدمةِ من كَشَفَ بجلاء عن واقعِ الازدواجيةِ، عبْرَ استِحْداثِهِ ثنائيةَ: "لغةُ القومِ"/ لغةُ اليومِ" (في غيابِ ما يُؤكِّدُ أنه استلهمَها من عالِمٍ آخر)، إذا كان الطرفُ الأولُ من الثنائيةِ واضحًا، ويُحيل على ما أطلقَ عليه "جرڤان" (٢٠١٢) اللغةَ المرجعيةَ؛ فإنَّ طرفها الثانيَ (لغةُ القومِ) يدعُو إلى التخمينِ لتحديدِ طبيعتهِ، وينتهي إلى إحالةِ المصطلحِ على تنوُّعٍ مُشتركٍ للغةِ أكثرَ ممّا يدُلُّ على تنوُّعٍ محلّي. وينتهي بعدَ مُقارنةٍ طريفةٍ بينَ

إشاراتِ "ابنِ فارسٍ" اللغوي في "الصاحبي" و"المقدّسيّ" الجغرافيِّ في: "أحسنُ التقاسيمِ إلى معرفةِ الأقاليمِ" إلى وُجودِ اختلافٍ بينَ هذين العالمَيْن –غابَ عن المُسْتعربينَ- وهوَ أنَّ عالمَ الجغرافيا عربيُّ المولدِ والنشأة، تتّضحُ نزعتُهُ الشاميةُ المنتصرةُ إلى اللغةِ كمَّا شاعتْ بينَ أهلِ المشرقِ، كما أنَّ عالمَ اللغةِ فارسيُّ الأصلِ، اكتسبَ العربيةَ اكتِسابًا، كلغة ثانيةٍ، ويستخلِصُ منَ المُقارنةِ احتِمالَ تعبيرِ الجغرافيِّ بشكلٍ جليٍّ إلى الحالة المزدوِجة للغةِ العربيةِ في سياق تمييزِهِ بينَ اللغةِ المحليةِ (: لسانُ القومِ) -بدلالةٍ مُغايرةٍ للدلالةِ التي اكتسبَها المصطلحُ عندَ "ابنِ فارسٍ"، إذ يرى أنه لحقَهَا الفسادُ- واللغةِ العربيةِ المشتركةِ (: لغةُ المنْشإ).

إنّ ما يُميّزُ كتاباتِ "بيير لارْشي" عُمومًا:

أ- التنقيبُ عنْ آراءِ علماء العربيةِ في الظواهرِ التي يُقبلُ على دراستِها في تخصّصاتٍ علميةٍ متعدِّدةٍ وفي عصورٍ مُختلفةٍ.

ب- الارتكازُ على التحليلِ – كما يتوضّحُ في خاتمةِ مقالهِ التي يُصرّحُ فيها بميْلِهِ إلى الاكتشاف وإعادة الاكتشافِ بغرضِ تشكيلِ رُؤيةٍ واضحةٍ عنِ العربيةِ وتمثيلاتِها- (نوثِرُ إضافةَ التمثُّلاتِ أيضا في إحالة على التصوّرات الذهنية الناتجة عن عمليات التحليل)؛ في حين اقتصرَ آخرون على الاستشهادِ بإشراقاتٍ منْ أقوالِ الأقدمينَ على حِسابِ التحليلِ. ندعو القارئَ، في هذا السياقِ، إلى مطالعةِ الإسْهاماتِ الغزيرةِ لرفيقِهِ: الفقيدُ "جمالُ الدِّينِ كولوكْلِي (١٩٤٨-٢٠١٣).

مراجع المترجِم

ابن فارس، أحمد. (١٩٩٧). *الصاحبي في فقه اللغة ومسائلها وسنن العرب في كلامها*. دار الكتب العلمية.

بدوي، السعيد محمد. (١٩٧٢). *مستويات العربية المعاصرة في مصر*. دار المعارف.

عمر، أحمد مختار. (٢٠٠٠). *المكنز الكبير: معجم شامل للمجالات والمترادفات والمتضادّات*. سطور.

الوعر، مازن. (١٩٨٧). *نحو نظرية لسانية عربية حديثة للتراكيب الأساسية في اللغة العربية*. دار طلاس للدراسات والنشر.

Blanc, H. (1960). *Style variations in spoken Arabic: A Sample of interdialectal educated conversation*. Cambridge, Mass: Harvard University Press.

Fleisch, H. (1968). *L'arabe classique: Esquisse d'une structure linguistique*. Dar el Machreq.

Kouloughli, D. E. (1996). Sur quelques approches de la réalité sociolinguistique arabe. *Égypte/monde arabe*, (27-28), 287-299.

Lecomte, G. (1960). L'Arabe tel qu'on le parle. *Les Langues Modernes*, novembre décembre , 452-462

Meiseles, G. (1980). Educated Spoken Arabic and the Arabic language continuum. *Archivum Linguisticum, 11/2*, 118-148.

Mitchell, T. F. (1975). Some preliminary observations on the Arabic Koine. *British Journal of Middle Eastern Studies*, *2*(2), 70-86.

Mitchell, T. F. (1978). Educated spoken Arabic in Egypt and the Levant, with special reference to participle and tense. *Journal of linguistics*, *14*(2), 227-258.

Mitchell, T. F. (1980). Dimensions of style in a grammar of Educated Spoken Arabic. *Archivum Linguisticum*, *11*(2), 89-106.

Mitchell, T. F. (1986). What is educated spoken Arabic?, *International Journal of the Sociology of Language (61)*, 7-32. https://doi.org/10.1515/ijsl.1986.61.7

Palva, H. (1982). Patterns of Koineization in modern colloquial Arabic. *Acta orientalia (København)*, *43*, 13-32.

Palva, H. (I969). Notes on classicization in Modern Colloquial Arabic. *Studia Orientalia 40*(3): 1-41.

Salib, M. B. (1980). *Spoken literary Arabic: Oral approximation of literary Arabic in Egyptian formal discourse*. A Berkeley University PhD dissertation.

Sallam, A. M. (1979). Concordial relations within the noun phrase in Educated Spoken Arabic (ESA). *Archivum Linguisticum Leeds*, *10*(1), 20-56.

Sallam, A. M. (1980). Phonological variation in Educated Spoken Arabic: A study of the uvular and related plosive types. *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, *43*(1), 77-100.

Séraphine C. G. (1945). *Les parles, initiation au Maroc*. Vanoest.